فهذا الشعر ، وان كان اسعاف ينظمه بعد سقوط السلطان عبد الحميد ، الا اننا لا نستطيع ان نسقط دلالته الواضحة على تقلص شعور الرابطة الدينية وانكماشه بين العرب وسدة الخلافة .

وقد رافق الوعي على ضعف السلطنة ووهن اركانها ، واليقظة العربية والشعور بكيانها تنبه مبكر على خطط الاستعمار الاوروبي ، ويقظة على اهدافه واطماعه ، (وكان اسعاف ايضا من اوائل الذين احسوا بالخطر المحدق بفلسطين وتنبأوا به ، فهو يقول قصيدة فلسطين والاستعمار الاجنبي في ستة وعشرين بيتا ، تناول فيها الاستعمار الاجنبي وحذر من امواله ومن نتائج الوقوع في حبائله ، ومنها :

يا فتاة الحي جودي بالدماء ... بدل الدمع اذا رمت البكاء
فلقد ولت (فلسطين) ولم ... يبق يا اخت العلى غير ذماء
نكبت اقدامها سبل الهدى ... فشرتها للعدى شر شراء
سوف تشكين وتبكين دما ... يوم لا يجدي ولا يغني البكاء
فدعوا شحناءكم يا هؤلاء ... وانبذوا البغضاء نبذا والعداء
ان الاستعمار قد جاز المدى ... دون ان يعدوه عن سير عداء
ان هذا الداء قد امسى عياء ... فتلافوه سريعا بالدواء
انها اوطانكم فاستيقظوا ... لا تبيعوها لقوم دخلاء
فاعلموا يا قوم ان لم تعلموا ... ان عقباكم هلاك وفناء
اذكروا ان غركم مالهم ... عزة النفس دوما والاباء (١٩)

وسواء كان هذا الاستعمار الذي يحذر اسعاف من خطره هو محاولات الدول الغربية شراء بعض الاراضي في فلسطين لاقامة المؤسسات الدينية وسواها ، ام انه خطر الاستعمار الصهيوني الاستيطاني الذي كان قد ظهرت بوادره ودس يده مبكرا في ارض فلسطين ومنذ ايام السلطنة العثمانية ، وهو ما نرجحه . ام انه كلاهما ، فان هذه القصيدة برغم ما هي عليه من تقريرية ومباشرة ، بيان في الناس جاء مبكرا ليصب الماء البارد على وجوه الغافلين ، وليذكرهم بعزة النفس وبالإباء وبعقبى الهلاك والفناء ان هم لم يدعوا شحناءهم ، وينبذوا بغضاءهم وعدواتهم .

وفي هذه الفترة التي بدأت فيها النفس العربية تتململ تحت كلكل الطورانية وتتفتح زهور كيانها في كهف الدولة العلية الرطبة ، بدأت اطماع الاستعمار الغربي تدهم الشرق ، وتطل عليه برأسها وتذر قرنها ، فزحفت عليه من شمالي افريقيا تريد انتهاش بعض اجزاء الامبراطورية ، وكانت حرب طرابلس بين تركيا وايطاليا سنة ١٩١١ تمثل حربا استعمارية قومية بين الشرق والغرب . ولا شك ان بعض الشعراء العرب من ذوي الاتجاه الديني نظروا اليها من وجهة نظر دينية واعتبروها حربا صليبية من دولة مسيحية تغزو اراضي المسلمين . ولكننا نرى شاعرا مسيحيا من شعرائنا في فلسطين يقول في هذه الحرب ، ناعيا على شعوب الغرب اطماعها وخروجها عن الدين المسيحي بسبب وحشيتها وجشعها : يقول اسكندر الخوري البيتجالي :* (٢٠)

* ولد في بيت جالا بجوار بيت لحم عام ١٨٩٠ ، ودرس في المدارس الطائفية في بلده وفي الناصرة وبيت لحم ، وانهى